مقياس :تاريخ المغرب الاقصى المعاصر

ماستر السداسي الثاني

المحاضرة 01:الحركة الاصلاحية في المغرب الاقصى خلال فترة الحماية المزدوجة

**تمهيد**:لقد وٌجدت بالمغرب الاقصى نخبة اصلاحية قبل مجئ الحماية المزدوجة عام 1912،كانت هذه النخبة معروفة بحركة "فتيان المغرب " على غرار حركة "تركيا الفتاة "،وحركة " تونس الفتاة" الاّ ان هذه النخبة الاصلاحية لم تظهر بصورة واضحة الاّ في مطلع الثلاثينات ،عندما تأكد لديهم ،ما يبيته نظام الحماية من معاداة ،ومحاولات لطمس الهوية العربية الاسلامية للمغرب ،انّ هذا الخطر الداهم لثقافة البلاد وشخصيتها كانت تعبر عنه مخاوف نخبة من العلماء والمثقفين والبورجوازيين وحتى الزعماء السياسيين خلال السنين الاولى التي رافقت نظام الحماية ،مما يؤكد على وجود تيار اصلاحي مجدد كان يحرك قسما كبيرا من سكان المغرب في مطلع القرن العشرين .

وكان ممثلو هذا التيار الاصلاحي مقتنعين عن اعتقاد وايمان، بأنّ أفضل وسيلة لمقاومة التغلغل الاجنبي والمحافظة على استقلال البلاد ،هو اصلاح الاوضاع المتردية ،والحد من مظاهر الفساد والانحطاط ،التي كانت تضعف هياكل الدولة والثقافة وروح المواطنة ،وبل حتى مبادئ الدين الاسلامي الحنيف ، ولتحقيق هذه الرغبة الإصلاحية كان لزاما على حركة الإصلاح الأخذ بوسيلتين :أولهما الرجوع الى اصول الدين الصحيحة ،الثانية العمل على تجديد واصلاح أجهزة الدولة في قالب ديمقراطي ،بالاقتباس عن الحضارة الاخرى (الغربية)كل ما هو مفيد في المجال السياسي ،ومنها تقييد سلطة الملوك المغاربة بدستور حقيقي مثلما حدث عام 1908 اين تم سنّ دستور ،تم بمقتضاه عزل الملك عبد العزيز بسبب فتحه ابوب التدخل الاجنبي في المغرب(الاسباني – الفرنسي)،ومبايعة الملك عبد الحفيظ والزامه بالغاء معاهدة الجزيرة عام 1906،والغاء الامتيازات الاجنبية ،وكذا قطع المفاوضات مع الاجانب ،واستشارتهم ،وعدم ابرام اية التزامات معهم الاّ بالرجوع الى الامة وموافقتها.

**الحركة الاصلاحية تياراتها ومشاربها** :تعود اصول الفكر الاصلاحي في المغرب الاقصى الى مجموعة من العوامل منها الداخلية ومنها الخارجية ،ففي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين انطلقت من المشرق العربي حركة فكرية ودينية تعزو اسباب تخلف الامة الاسلامة في مقابل الغرب المسيحي الى التخلي عن المبادئ الاساسية التي جاء بها القرآن والسنة .فدينيا يعود ذلك التخلف الى سلوكات وانحرافات وممارسات غريبة عن الدين مثل التبرك بالقبور والاشجار والاحجار والاعتقاد في القوى الغيبية ،وسياسيا تعود اسباب التخلف الى الى حالة الفوضى والاستبداد ،التي توجد عليها اغلبية الدول الاسلامية ،وهو الشئ الذي اسرع بخضوعها الى الى الاستعمار الغربي ،وكانت هذه الافكار التي تعود في اصلها الى القرن الرابع عشر الى ابن تيمية الدمشقي ،والتي كانت ايضا اساسا للدعوة الوهابية الحجازية قد وصلت الى المغرب الاقصى بواسطة الطوائف الطرقية كالسنوسية والقادرية وغيرها

ويعتبر كل من الاستاذين جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده رائدي حركة الاصلاح والتحديث في العالم الاسلامي ،من الذين اسهموا بدرجة اكبر في تسرب الافكار الاصلاحية الى المغرب الاقصى .الا ان الشيخ محمد عبده هو الذي وضع بحق الاسس الصحيحة لبرنامج الحركة الاصلاحية في العالم الاسلامي وفي المغرب الاقصى على وجه الخصوص ،بكونها حركة تدعو الى تعاليم السلف الصالح وحدد برنامجها في 04 نقاط :تنقية الدين من المعتقدات الباطلة ،اصلاح التعليم الاسلامي ،تجديد الفكر الديني ،حماية الدين الاسلامي من التأثيرات المسيحية

لا يمكن بأي حال من الاحوال فصل الحركة الوطنية المغربية عن سياقها التاريخي وحضنها الطبيعي الذي نشأت فيه وتبلورت بالارتباط التام معه وهو الاسلام الاصلاحي الذي مثّله الافغاني – عبده – رضا – وكان الامير أرسلان رائده وناشر فكره ومنهجه في المشرق والمغرب على السواء . يقول عبدالله العروي ان فكر وتراث محمد عبده قد أثمر بعد موته في المغرب اكثر من مصر .. وقال انه لو لم يوجد محمد عبده لوجب اختراعه ..

وليس شخص محمد عبده هو من أثّر في المغرب وانما مدرسته وخصوصا بواسطة المنار ، وبواسطة سمعة وشهرة وعمل وفكر أرسلان ،هذا الاخير الذي زار تطوان خلال 9اوت 1930،وكان الاصلاحيون والسياسيون المغاربة قد اجتفوا بتلك الزيارة واعتبروها منطلق اساسي في ظهور الفكر الاصلاحي بالمغرب، و تحول أرسلان بعدها الى اب روحي واستاذ مرشد للقادة من مؤسسي لجنة العمل الوطني في المغرب. وأكد المغاربة ايضا" على انه جرى خلال زيارة تطوان وضع برنامج عمل مشترك ضد الفرنسيين انطلاقا" من الكفاح ضد الظهير البربري1930 ومن الحملة التي يقودها الامير ارسلان في الخارج ، خصوصا" بواسطة مجلته الامة العربية ، ناهيك عن مقالاته في الفتح والشورى والمنار.. حتى ان عبد الكريم غلاب يؤكد على انه بفضل الاتصال بالامير شكيب ، ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب ، استطاعت الحركة الوطنية المحافظة على توجهها الاسلامي الذي كان في أساس نشأتها

 وبالفعل ، فان مجلة الامة العربية ستصبح منذ صدورها عام 1930 لسان حال المطالب الوطنية المغربية. وهي ستتابع بدقة تطور وصعود الحركة الوطنية المغربية في المغرب كما في فرنسا .

" فعلى الرغم من ضغط مدرسة مالكية تقليدية ومن عزلة جغرافية نسبية الا ان التأثيرات المشرقية قد وصلت الى أقصى الغرب المغاربي ".فلقد كان هناك حوالي الألفي مغربي في القاهرة والاسكندرية يعملون في التجارة ، كما ان أعدادا" اخرى من الطلبة كانت تدرس في الازهر زمن الشيخ محمد عبده ومجلة المنار التي كان لها نفوذ كبير في المغرب .. وحتى عام 1912 عمل المصريون والاتراك مباشرة في المغرب بهدف مقاومة مخططات الاجانب .. وكان الخديوي عباس حلمي الثاني وجماعة تركيا الفتاة يرسلون بعثات عسكرية ودعائية للعمل وسط القبائل .(4)

وكان عبدالله ابن ادريس السنوسي رائد الاصلاحية في المغرب، طالبا" أزهريا" نجح في نشر أفكار تلك المدرسة وفي الدعوة الى انشاء الجمعيات والنشاطات الاجتماعية الثقافية والتربوية .وقد واصل ابوشعيب الدوكالي والعربي العلوي عمله وهما كانا من تلامذة المنار التي انتشرت بقوة في فاس

ولهذا تبنت الحركة الاصلاحية المغربية في بداياتها الطراز والنموذج المشرقي خلال بداية القرن العشرين ،أي في مقاومة البدع المستحدثة في الدين ،والمؤسسات المتسببة في ذلك مثل"الطوائف الصوفية – الزوايا الدينية المتعددة – أضرحة الصلحاء"،ولهذا تعتبر الحركة الاصلاحية المغربية بفكرها الاصلاحي وبتياراتها واقطابها منطلقا للحركة الوطنية السياسية والثقافية التي سيشتد عودها في مواجهة السياسات الاستعمارية ،الرامية الى تفكيك اسس الشخصية المغربية ومنها الدين والثقافة القومية ،والتعليم الاسلامي ،ولذلك كان يرى الباحثون في تاريخ الافكار :ان كل دعوة الى البحث في الماضي وتصحيحه ليست خطوة الى الوراء والتقهقر والتراجع ،"وانما الذي ينظر في تاريخ الحركات العامة يجد انه لم تقم ثورة مفيدة في بلد ما الاّ سبقتها دعوة للرجوع للماضي البعيد ،ذلك أنّ هذا الرجوع الذي يظهر في شكل تقهقر ال الوراء هو نفسه تحرر كبير من أشياء كثيرة وضعتها الاجيال العديدة والعصور المختلفة"[[1]](#footnote-2)

والشئ الذي استنكره السلفيون المغاربة هو معتقدات الصوفية الفاسدة من خلال الاوراد التي تتم بواسطة الموسيقى والطرب ،ويرى فيها اصحابها ومريدوها اسرارا تعبر عن الاتصال الروحي بالعالم الالاهي،وكما استهجن السلفيون[[2]](#footnote-3) تلك المواسم المنعقدة (الوعدة) باسم الصلحاء،وما يقع فيها من بدع النذر والتوسل خروجا عن الملة وانحرافا عن جادّة الصواب ،وفي هذا الاطار ظهرت كتابات ونصوص غنية بالنقد والنقض للبدعة في الدين ،ومنها كتاب "الزجر والاقماع" للمصلح محمد بن المدني كنون ،و"الفكر السامي " ثم "صفاء المورد " للفقيه المصلح محمد الحجوي،و"حجة المنذرين" لاحمد بن المواز،و"تعظيم المنة" ثم "الاستقصاء" لاحمد بن خالد الناصري،وكلهم نددوا بالاثار التضليلية للطرقية الفاسدة ،وتسببها في فرقة المسلمين ،واستقطاب عامة الناس (المريدين) باستغلال جهلهم .

كما كان للشيخ الكتاني من الاهمية بمكان اذ كانت الدروس في الوعظ والارشاد التي كان يلقيها في جامع القرويين ،تجمع حوله جمهورا غفيرا وكذا تنقلاته كانت تجمع حوله جماهير متحمسة لافكاره الداعية الى تنقية العقائد والفهم الصحيح للدين ،ومن جهة اخرى دعوته الى اصلاح النظام الحاكم الذي يمثله الملك ،ومنها نظام الملك عبد العزيز الذي توانى في حماية الناس والدفاع عن متاعبهم ودينهم ،بالنهوض بمبادئ الاسلام بواسطة الشورى ،ونشر المعرفة واصلاح الادارة واسترجاع المناطق المحتلة ،وهي نفس الافكار التي تبنتها نخبة المصلحين السلفيين - الذين سبق ذكرهم –في مشروعها الاصلاحي عن طريق مزج السياسة بالسلفية الدينية ،ومنهم احمد بن خالد الناصري (الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى)،والفقيه محمد بن الحسن الحجوي(الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي)،والسليماني ابو عبد الله صاحب (اللسان المعرب عن تهافت الاجنبي حول المغرب) والشيخ ابي شعيب الدكالي الذي مثّل بحق دعوة الاصلاح المشرقية بسبب استقراره مدة من الزمن بالشرق واحتكاكه بالافغاني ومحمد عبده وغيرهم من المنظرين لمبادئ السلفية المتنورة الداعية الى تحصين البلاد بالاصلاح والتغيير السياسي.

فالسلفية في المغرب لم تتوقف عند حدود العودة إلى السلف الصالح والكتاب والسنة، لتجديد الدعوة الإسلامية، بل تجاوزت ذلك لتصبح أساساً لتعبئة القدرات وتوجيه حركة النضال لمقاومة الاستعمار. وفي هذا الإطار تصدرت السلفية تفكير النخب السياسية المغربية، ووجهت حركتها الوطنية، سواء قبل العمل السياسي المهيكل المنظم أو بعده ،لمواجهة تحديات الاستعمار الفرنسي الذي حاول طمس الهوية وفرض الثقافات الغربية وفرنسة أبناء الوطن المغربي، فيما عرف بسياسات الاستيعاب وفرنسة النخبة، وهكذا فالسلفية ، كما وردت عند علال الفاسي هي : سلفية وطنية مناضلة ، كونت الجيل الأول من رجال الحركة الوطنية المغربية ، وقدمت لهم الأساس الفكري العربي الاسلامي لتطلعاتهم النهضوية التحديثية ، ومواقفهم السياسية النضالية . كما يقول عنها أيضا : "السلفية تمتاز في علم الحضارة بالتمرد علي الحاضر و الاستنجاد بالماضي ، لاكتساب الطاقة الحرارية التي تنقل المجتمع الجامد الي السير نحو مستقبله"[[3]](#footnote-4)

1. علال الفاسي،الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ،ص 156. [↑](#footnote-ref-2)
2. **السلفية** ، هي حركة تمتد في اصولها الى الحركة الوهابية التي نشأت في الحجاز في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر ، وهى تدعو الى تطهير الدين من الخرافات التي الصقت به والعودة الى السلف الصالح وروح السنه

المطهرة بغرض تربية الشخصية الإسلامية على المبادئ التي جاء بها الاسلام بصفته المتكفل بصلاح الامه . لذلك عندما تعرض المغرب للهجمة الاستعمارية على يد فرنسا واسبانيا نظر اليها على انها صراع بين المسيحية والاسلام واعتداء على الدين وان الاخرالأجنبي عدو كافر لذا وجب الجهاد للدفاع عن عزة الاسلام انظر : علال الفاسي ،الحركات الاستقلالية ، مصدر سابق ، ص 135 ايضاً امحمدمالكى ، مرجع سابق ،ص ص217-.222 [↑](#footnote-ref-3)
3. الفاسي ،المرجع السابق، ص135 [↑](#footnote-ref-4)